ناجية غافل المواني

سيرة عنترة والدراسات الاستشراقية

لقد اجمع كتاب التراث العربي ورواة سيرة عنترة ، على كون عنترة ـ او عنتر ـ بن شداد العبسي هو احد مشاهير فرسان العرب وشعرائها الجاهليين . تقول كتاب التراث ورواة السيرة ، ذلك لان بين ايدينا الان نوعين من المصادر التي تتحدث عن هذا الفارس ، هما : سيرة عنترة بن شداد العبسي من جهة ، وبقية كتب التراث من جهة اخرى .(١)

اما كتب التراث فتذكر ان ام عنترة كانت امة حبشية اسمها زبيبة ، وان اباه شداداً العبسي انكر عنترة صغيرا ، فخدم النساء ورعى الماشية شأن العبيد ، وان اباه هذا اعترف بعنترة كبيرا ، فكان فارس عبس المبرز في حروبها وغزواتها (٢) ، وكانت حرب داحس والغبراء هي الميدان الذي ظهرت فيه فروسية عنترة ، حضر معظم ايامها ، وابدى من البطولة والمروءة ما جعل العرب تنظر اليه نظرتها الى فرسانها الافذاذ ، حتى قال عمرو بن معد يكرب : « ما ابالي من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقني حراها وهجيناها » . والحران هما عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، اما العبدان فهما عنترة والسليك بن السلكة (٣) ، وذكر كذلك ان الحطيئة اجاب عمر بن الخطاب حين سأله عن حروبهم في الجاهلية قائلا : كنا الف فارس حازم ، وكان قيس بن زهير فينا وهو حازم فكنا لا نعصيه ، وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل اذا حمل ونحجم اذا حجم ، وكان فينا الربيع بن زياد وكان ذا رأي فكنا نستشيره ولا نخالفه ، وكان فينا عروة بن الورد فكنا ناتم بشعره . وحين غزت بنو عبس بني تميم وعليهم قيس بن زهير ، انهزمت بنو عبس وطلبتهم بنو تميم ، فوقف لهم عنترة ،ولحقتهم كبكبة من الخيل ، فحامى عنترة عن الناس فلم يصب مدبرا ، فقال قيس بن زهير : والله ما حمى الناس الا ابن السوداء (٤) .

وحين اصطدمت عبس بتميم يوم الفروق ، كر عنترة كرته ، فقتل فارسهم معاوية بن نزال ، واجاب حين سئل عن عدد قومه في ذلك اليوم : « كنا مائة ، لم نكثر فنتكل ولم نقل فنذل » (٥) . اما في يوم الجراجر وحين التقت ذبيان ومن معها بعبس على ذات الجراجر اقتتلوا قتالا شديدا ، وظهرت في تلك الواقعة شجاعة عنترة (٦) وحين اغارت بعض احياء العرب على قوم من بني عبس واصابوا منهم فتبعهم العبسيون وقاتلوهم ، كر عنترة على القوم وقاتلهم واستنقذ ما في ايديهم من الغنيمة ، فادعاه ابوه بعد ذلك . وكان عنترة اشجع اهل زمانه واجودهم بما ملكت يده .(٧) ويشارك عنترة في يوم المريقب ، فيقتل ضميما المرى ، وهو يصف الحرب فيحسن الوصف ، وحين يعدد كتاب التراث فرسان العرب يكون على راسهم عنترة (٨) .

وعنترة يوضح معالم الفروسية ويضع حدودها ، وذلك فيما يذكر عن قوله لرجل سبه وذكر سواده وامه واخوته ، فيجيبه عنترة بان الفروسية هي الشجاعة والاقدام والمبادرة لنصرة الداعي والكرم والحلم وحسن الفصل في الامور ، والعفة وقول الشعر . يضع عنترة هذا بقوله للرجل : « ان الناس ليترادفون بالطعمة ، فما حضرت انت ولا ابوك ولا جدك رفد الناس قط ، وان الناس ليدعون في الغارات فيعرفون بتسويمهم ، فما رأيتك في خيل مغيرة في اوائل الناس قط ، وان اللبس ليكون بيننا ، فما حضرت انت ولا ابوك ولا جدك خطة فصل ، وانما انت فقع بقرقر ، واني لاحتضر الباس ، وافي المغنم، واعف عن المسألة ، واجود بما ملكت يدي ، وافصل الخطة الصمعاء، واما قول الشعر فستعلم » (٩) .

ويثبت رواة الشعر وشراحه سبق عنترة في هذا الميدان ويؤكدون خبر مذهبته ، ويجمعون ويشرحون قصائده مع مشاهير شعراء الجاهلية ، كما يتحدثون عن دوافع واسباب قول هذه القصيدة او تلك ، وهم يذكرون حبه ابنة عمه ، عبلة ، وتغنيه باسمها ومباهاته في حضورها بخصاله وفعاله التي هي نموذج لفعال وخصال الفارس العربي ، حتى ذكر ، بأن النبي الكريم حين انشد قول عنترة في التعفف وعزة النفس :

ولقد ابيت على الطوى واظله حتى انال به كريم المأكل

قال : « ما وصف لي اعرابي قط فاحببت ان اراه الا عنترة »(١٠) وعنترة يتباهى بشجاعته ومروءته امام عبلة ابنة عمه مالك ، فيقول :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ان كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الوقائع انني اغشى الوغى واعف عند المغنم(١١)

ويؤكد عنترة لعبلة وفاءه وسماحته من جهة ، وغضبته الساحقة للثار من الظالمين ، فيقول :

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم
اثني علي بما علمت فانني سمح مخالقتي اذا لم اظلم
فاذا ظلمت فان ظلمي باسل مر مذاقته كطعم العلقم

ويمتزج الحب بالحرب في ذهن الفارس العربي، فتراءى لـه اشراقة ثغر الحبيبة في لمعان السيوف التي تنهل من دمه .فيقول :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لانها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وعنترة ـ كبقية فرسان العرب ـ ولوع بعدة الفروسية :الخيل والسلاح ، يذكرها ويتغنى بها في كل المناسبات ، يقول :

لما رأيت القوم اقبل جمعهم يتدامرون كررت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها اشطان بئر في لبان الادهم
ما زلت ارميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم

وهو يكلم الحصان فيكاد الحصان ان يجيب ، يقول عنترة في هذا:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى او كان يدري ما جواب تكلمي

اما سيف عنترة فو صارم لا يفل ، فهو يصفه قائلا :

وسيفي صارم قبضت عليه اشاجع لا ترى فيها انتشارا
وسيفي كالعفيقة وهو كمعي سلاحي لا افل ولا مظارا

ان افراس عنترة وسيفه ، ورمحه وكل آلة الحرب ، واشاجع عنترة الخالية من اللحم المكتنز ، ومروءته وسماحته ووفاءه وعفته ، وبروزه في مواقف الكر والشجاعة والاقدام لتنبيء كلها عن شخصية الفارس الشاعر العربي مسجلة تاريخيافي كتب الادب والتاريخ والتراجم والشعر . ومن هنا نتساءل قائلين : ان كان هذا الفارس قد ورد ذكره ونعته في كتب التراث على الصورة التي قدمناها ، فمن يكون عنترة بن شداد العبسي كما تحدث عنه رواة السيرة ؟

لقد وردت حكايات عنتر بن شداد العبسي مروية من قبل رواة يتصدرهم الاصمعي ، تلك الحكايات مجموعة فيما يسمى بسيرة عنتر وهي تقع في اثنين وثلاثين جزءا مكتوبة بالنثر البسيط المسجوع، يتخلله ما يقارب عشرة آلاف بيت من الشعر (١٢) . وقد ذكر ان هناك سيرة عراقية واخرى حجازية ، الا ان الواقع يثبت انها سيرة واحدة فقط . وقد قيل ان الاصمعي جمعها بأمر الخليفة هارون الرشيد ، ويرى البعض انها جمعت بعد ذلك التاريخ .(١٣)

تحتوي السيرة على لمحات من التاريخ الجاهلي والاسلامي ،وعلى حكايات شعبية واساطير ومبالغات خارقة للمعقول ، تسيطر على ذلك روح الفروسية العربية (١٤) فعنتر السيرة هو نفسه البطل الذي يغشى الوغى ويعف عند المغنم . هو فارس بني عبس ، وبنو عبس تتمثل فيهم مفاهيم الفروسية العربية ،فهم كما وصفهم راوي السيرة شجعان : « سمتهم العرب فرسان المنايا والموت الزؤام ،فشاع ذكرهم في ذلك الزمان وساروا يحمون الطريد ويؤمنون الخائف والفزعان ويجيرونه من كل انسان ولو ان طالبه ملك او سلطان ، ومن ظلمهم بادروه بالحرب والكفاح ونسبوه بحدود السيف واسنة الرماح ، والفارس منهم لا يولي ولو اثخن بالجراح ، ويرى الموت احلى من شراب الكأس الراح .. وكان لهم ملك من اجل ملوك الزمان يقال له زهير بن جذيمة ،وكان كاملا في كرمه وشجاعته وفضله ، وله ابطال وفرسان تركب لركوبه وتنزل لنزوله ». (١٥) وعنتر يعشق ابنة عمه مالك فيفجر حبها قريحته بينابيع من الشعر ، ويكون واحدا من اصحاب المعلقات .(١٦) تلك هي صورة مختصرة لعنتر السيرة ، وهذه الصورة تعكس المفاهيم التي وردت في كتب التراث اعلاه . وسوف نتعرض لكل ذلك بالتفصيل .

ان سيرة عنتر هذه لفتت انظار المستشرقين المتخصصين بدراسة الفكر الانساني خلال العصور الوسيطة ، وذلك منذ ما يقارب قرنين من الزمان (١٧) . وقد قدمت على مستوى الدراسات الاوربية من قبل هامر ـ برجستال في مقالات ظهرت في المجلة الآسيوية سنة تسع عشرة وثمانمائة والف . ثم قدم السيرة الى ميدان الادب المقارن المستشرق دنلوب لايبرخت وذلك سنة احدى وخمسين وثمانمائة (١٨) واصبحت بعد ذلك موضوعا مفضلا للدرس والمقارنة ،فقد اعجب بها المستشرق تاين ووضع عنترة مع ابطال وفرسان الادب الاوربي الوسيط كرولاند والسيد وسيجفريد وغيرهم ، ورأى دلكلوز في عنتر انموذج للفارس الاوربي ، اما رينو فقد راى نقيض ذلك ، وقال ان سيرة عنتر تقليد ومحاكاة للافكار الاوربية .. وتحدث اخرون في موضوع السيرة وذلك في كتب خاصة او ضمن حديثهم عن الادبين العربي والاوربي في العصر الوسيط . ومن بين هؤلاء المستشرقين بروكلمان وكولدزيهر، لامارتين ،هاملتون ، توربك ، نكلسون ،وآخرون (١٩) .

ان الاسباب التي دعت هؤلاء الكتاب الى الاهتمام بترجمة سيرة عنتر ودراستها وتحليلها تعود الى وجود حكايات مشابهة لها ظهرت في فرنسا وفي انحاء اخرى من اوربا منذ اوائل العصرالوسيط وعرفت بالرومانس . وكلمة رومانس تعني اللغات المحلية المتفرعة من اللاتينية والتي نشأت في بلدان غرب اوربا بعد انحسار الامبراطورية الرومانية عنها ، فظهر الرومانس الغالي الفرنسي ، الايطالي، الاسباني ، البلقاني ، وغيرها ، ثم اطلقت الكلمة على الادب الذي ظهر بتلك اللغات ، وفي فرنسا قبل غيرها من الاقطار الاوربية. ومعظم هذا الادب يتكون من حكايات تدور حول فارس يمتطي جواده ويشهر سلاحه في سبيل تحقيق عدالة ، او من اجل اعادة حق سليب ، او للاخذ بالثار . وقد اصبحت حكايات الفروسية تلك حكايات واشعارا تتحدث عن عشاق يقاسمون الآلام ويقاومون اقسى الظروف في سبيل المراة التي يعشقون (٢٠) .

لقد بدأت تلك الحكايات بالظهور في فرنسا قبل غيرها من الاقطار الاوربية كما ذكرنا . وكانت تدور حول مقاومة جيوش شارلمان للعرب (المحتلين) كما كانوا يدعون في اوربا آنذاك . واقدم حكاية من هذا النوع هي حكاية رولاند الشعرية ، او اغنية رولاند التي قيل ان ناظمها هو احد التروبادور . وتعتبر هذه الحكاية احسن واحدة في مجموعة شعرية تدعى اغاني البطولة . وكانت تنشد في الساحات او تغنى في قلاع نبلاء وامراء القرون الوسطى . وليس لرولاند بطل هذا الرومانس شخصية يثبتها التاريخ (٢١) .

تبدأ الحكاية الشعرية بالحديث عن شارلمان الامبراطور الذي ما زال جيشه ـ كما تقول الحكاية ـ في معركته ضد العرب في قرطبة منذ سبع سنوات .

رولاند اشجع فرسان الامبراطور شارلمان ، يقابل مع صديقه ورفيقه في السلاح ومن معهم ، يقابلون ـ وهم قلة ـ جيش العرب . رولاند الذي يستطيع ان يقهر العالم بسيفه « ديورندال » يلتقي بمبارزات مع فرسان العرب .

يقتل رولاند ، فيهب شارلمان ممتطيا جواده تنسندور ،ويمضي بفرسانه طالبين الثار من قتلة الفارس رولاند (٢٢) .

وهناك حكاية السيد ، والسيد هو رمز لفرسان اسبانيا المقوميين ، اصبح ابتداء من سنة مائتين والف للميلاد بطلا لمجموعة من اشعار الفروسية التي لا يعرف اسم واضعها او واضعيها .يضرب الخصوم فيقعون عشرات تحت حصانه ، يهرب الالوف خائفين من الاسد الهائج ، حتى يستيقظ السيد من نومه ، ويتقدم من الوحش الثائر فيخضع ويستكين ، يهزم السيد كل من يقف في طريقه ،ويتخذ من فالنسيا عاصمة لدولة يكون هو بطلها المطلق (٢٣) .

اما قصة الفارس العاشق سيجفريد وحبيبته الجميلة كريمهلد فهي من الحكايات التي ظل الناس يرددونها ، دون ان يعرفوا اصلها. والمجموعة الاصلية المانية ، ذكر انها كتبت حوالي سنة مائتين والف

للميلاد ، وهي تتحدث عن وجود فتاة نبيلة وجميلة لا مثيل لها في العالم اجمع اسمها كريمهلد ، وهي شقيقة لثلاثة ملوك يحكمون بورجندي الواقعة على ضفاف الراين . لقد رفضت كريمهلد جميع الملوك والامراء الذين تقدموا لطلب يدها . وقد وصلت انباء جمال الفتاة ونبلها ودلالها الى مسامع سيجفريد ، فاحبها قبل ان يراها. ركب الفارس وصحبه الى بلد الحبيبة ، وكانت انباء فروسيته قد سبقته الى ذلك البلد . فهو اعظم فرسان الدنيا ، قتل النيبلونغ واخذ كنزهم المشؤوم وكسب سيفه الذي لا يفل ، وكذلك حمل على العباءة المسحورة التي تخفي لابسها عن الابصار . سيجفريد ـ كما تصوره الحكاية ـ فارس لا يقاوم ، لقد قتل التنين مرة واستحم بدمه، فاصبح جلده قويا لا تؤثر فيه ضربات السيوف وطعنات الرماح . حياة سيجفريد حرب وحب وما يتخلل ذلك من مكائد وملابسات يثبت فيها الفارس كفاءته في ميدان الشجاعة وفي ميدان الشهامة والخلق النبيل معا .(٢٤)

وهناك بين قصص الرومانس الاوربي قصة اوكاسين ونيكولايت، وهي شعر ونثر . يعشق اوكاسين النبيل فتاة جلبت من بلاد الكافرين، رباها ربان السفينة الذي جلبها ، فاعتنقت المسيحية ، وكانت كما يراها اوكاسين ممتازة بالجمال والشرف ، وقليل لها ان تكون امبراطورية القسطنطينية ، المانيا ، فرنسا ، او انكلترا . ومع ذلك فان والد اوكاسين يرفض تزويج ابنه من فتاة عديمة النسب ، فابنه فارس نبيل ، ولا بد له ان يتزوج بواحدة من بنات النبلاء . وتمضي الحكاية بين مبارزات وحروب وحب (٢٥) .

لقد صحب تلك الحكايات ـ كما ذكرنا ـ ظهور نوع من اشعار الغزل وذلك لاول مرة في مقاطعة بروفنس الفرنسية المتاخمة للحدود الاسبانية منذ القرن الحادي عشر الميلادي . وقد اطلق النقاد على شعراء هذه المدرسة اسم التروبادور ، ولكل من هؤلاء الشعراء قصة حب وقصائد غزل . فقد ذكر ان احدهم وهو جوفري رودال، وهو نبيل وامير بلدة سانيا ، احب كونتيسة طرابلس ولم يكن قد رآها ، احبها من الاخبار المدهشة التي سمعها عن جمالها وكمالها من افواه الحجاج العائدين من انطاكية ، ونظم الاشعار في حبها. ثم دفعته الرغبة في رؤيتها الى حمل الصليب والسفر عبر البحر . فمرض من شدة الحب والشوق مرضا كاد يودي بحياته وهو على ظهر السفينة ، وظن لشدة اساه انه سيموت قبل ان يراها . ولكن الركاب نجحوا في انزاله الى طرابلس وهو في رمقه الاخير ، وكانت الكونتيسة قد سمعت بخبره فاسرعت لزيارته وهو على فراش الموت واخذته بين ذراعيها ، فادرك انها الحبيبة ، وصلى شاكرا الرب الذي امد في حياته ومكنه من رؤيتها قبل موته. ومات بين ذراعيها ، فامرت بان يكون له جناز ومدفن في المعبد ، ثم ارخت قناعها حزنا عليه .(٢٦)

اما وليم التاسع كونت بواتيه ، فتخبرنا المصادر بانه اول شاعر في مدرسة التروبادور ، وكان قد قاد جيشا قوامه ٣٠٠ الف رجل في حملة صليبية الى الشرق ، وغاب مدة ١٨ شهرا عاد بعدها من يافا خاسرا الحرب ومزودا بفن الحب وفن الغناء (٢٧) .

* * *

لقد ادرك المستشرقون مدى التشابه بين المثل والمفاهيم التي تعكسها حكايات الفروسية الاوربية ـ التي قدمنا نماذج منها اعلاه ـ وبين مفاهيم ومثل الفروسية الواردة في التراث العربي عامة وفي سيرة عنتر خاصة ، حتى ان الباحث ليدركه الملل وهو يحاول ان يجمع بالتفصيل اوجه الشبه ونقاط التلاقي في هذا المجال (٢٨) . فالفروسية في اوربا يعبر عنها بكلمة Chivalry ماخوذة من الفرنسية القديمة ، والمعنى الحرفي لهذه الكلمة كما تورده القواميس الاوربية هو : فرسان مسلحون ، ومن هنا ينشا مفهوم العلاقة بين الفارس وحصانه ، وبينه وبين سلاحه (٢٩) فالاهتمام بالخيل والسلاح وارد في ادب الفروسية الاوربي والعربي معا . ولكل فارس حصان يغالي في وصفه ، ويعتز به ، ويعامله معاملة الرفيق العزيز . نذكر من تلك الخيل بابيكا حصان السيد ، وتنسندور حصان شارلمان ، وفيانيتو حصان رولاند ، وتاجبرون حصان جانيلون وبايار حصان رينودي مونتوبان الذي قيل انه هرب بعد موت فارسه لكيلا يخدم سواه (٣٠) اما في دنيا العرب فقد ورد من اسماء الخيل واوصافها ووجوه الاعتزاز بها ما لا يستطاع حصره في بحث كهذا . نكتفي ببعض الذي ورد في سيرة عنتر بالذات فنذكر جروة فرس شداد ، والقمصاء فرس زهير ، وداحس فرس قيس بن زهير ، والغبراء فرس حذيفة ، وسكاب فرس مفرج بن وثاب . واما خيول عنترة فكثيرة اشهرها الابجر بن النعامة الذي تقول السيرة انه انطلق بعد وفاة عنتر هائما في الروابي والقفار فلم يدركه احد ، كما فعل بايار تماما (٣١) .

اما بالنسبة للسلاح فان لكل فارس من فرسان الحكايات الاوربية سيفا او رمحا او بوقا يصاحبه ، ويكون ساعده الذي لا يفل في نصرة اصحابه والفتك باعدائه . ولدينا في دنيا العرب اكسكابر سيف الملك آرثر ، بالمونغ سيف سيجفريد الذي كسبه من قادة النيلونغ ، ولدينا بوق رولاند السحري اوليفان ، وسيفه ديورندال الذي ضرب به الحجر فكسر الحجر ولم يفل السيف، كما يستعمل رولاند المزراس او المزراق (٣٢) وحين نعود الى الشرق نجد الكثير عن الاسلحة العربية واسمائها واوصافها وطرق صناعتها مما يشير الى اهتمام الفارس العربي بهذا السلاح الذي يساعده على تحقيق النصر للصديق والموت المحقق للعدو . ونكتفي هنا بالاشارة الى « الظامي » سيف عنتر الذي استطاع به ان يفل سيفا من اقوى السيوف العربية ذلك هو ذو الحياة ، سيف ظالم بن الحارث الذي ضرب به الحجر فكسر الحجر كما ورد في قصة رولاند .(٣٣) وقد كسب عنتر سيفه بعد قتله ابن الامير الحارث بن النبع ، وقد قيل ان ابن الحارث هذا لا يستحق السيف لكونه ظالما لا يجيد استعماله ، والظامي مصنوع من حجر النجوم او الصاعقة كما يصفها راوي السيرة ، ومن هنا كان سر قوته وجماله (٣٤) .

الفروسية ـ كما رأينا ـ تنطلق من ركوب الخيل وحمل السلاح، ولكن ، ليس كل مسلح راكب الحصان فارسا ، لان للفروسية مثلها الشريفة . فالفارس يلبي نداء الواجب ، وينطلق للدفاع عن الحرية المهدورة ، ويهرع لحماية المستغيث المظلوم ، ولا يقعده عائق عن الاخذ بالثار ، وهو يفضل الموت على العار ، وقد قدمنا نماذج من تلك الصور سابقا . فالغنية رولاند ـ اقدم تلك الحكايات الاوربية واجودها ـ تتحدث عن الفارس الذي ابدى من صنوف البطولة والتضحية في ساحات القتال ، ومن الصبر على مقارعة الابطال ، ومن الكرم والشهامة ما جعله انشودة الاجيال (٣٥) ، وفوق ذلك ، فان تلك الحكايات ملأى باخبار هؤلاء الفرسان الذين يصارعون الاسود ، ويقتلون الفيلان (٣٦) .

لقد وجد المستشرقون في سيرة عنتر ، مئات الحوادث والمواقف والاخبار التي تعكس مفاهيم مشابهة لما ورد في اوربا في العصر الوسيط . فعنتر هو المدافع عن حقوق قومه ، وحامي عشيرته حين تتواثر عليها الاعداء ، وتسد بوجهها السبل ، ينطلق ملبيا النداء، نداء مليكه او ابيه او عمه ، ويعمل ما توجبه المروءة والنخوة ، يستقبل الاعداء الغزاة بقلب اصلب من الحجر ، وطعن يسبق لمح البصر ، فينثر الفرسان الصناديد ، تحت اقدام حصانه (٣٧) وهو في كل مرة

يصون الذمار ، ويرعى الحريم ، ويفعل فعل الرجل الكريم ، لقد ترك مع النساء والاطفال حين غادرت عشيرته الديار لقتال بني تميم، فلما اغارت جيوش الاعداء وسبت النساء ومعهن ابنة عمه عبلة ، ثار عنتر ثورة الفارس الجبار وركض عدوا وراء الفارس وجذبه من على ظهر جواده ورماه على ام راسه فقصف رقبته واخذ حصانه وسلاحه ، ثم ركب الجواد وكرّ على القوم قتلا وجرحا فشردهم تشريدا (٣٧) وحين دارت على عبس الدوائر وزعق على ديارهم البوم والغراب قال له ابوه : اركب جوادك وكر . فكر وفعل فعلته مفرقا صفوف الاعداء وحاميا الرجال والنساء . وحين منع عبد شاس ابل العجوز من ورود الماء ، ودفعها وطرحها ارضا ، قفز عنتر على عبدالامير فرضّه رضّا دون ان يابه للعواقب التي قد يلقاها . وعنتر معروف بقتله الذئاب والوحوش الاخرى ، حتى لقد قتل اسدا هائجا وهو موثق الرجلين (٣٨) وهو عزيز النفس ، نفور من الضيم والهوان، كريم لا يؤثر ذاته بشيء دون الآخرين ، وقد اورد راوي السيرة قول عنتر لقومه : « وانا وحق ذمة العرب وشهر رجب لو ملكت كل مال الارض لا اطمع منه في عقال، وما قصدي الا رضاكم على كل حال » وكلما كسب اموالا واعلاقا ثمينة وزعها على الناس . وحين قسم الملك زهير الغنائم بين الرجال بالسوية ، اخذ كل منهم سهمه ،ووهب عنتر جميع حصته لابيه وعمومته ، وحين لا يملك شيئا فانه يخلع ثيابه الثمينة على عمه ويبقى مرتديا القميص وحده (٣٩) وقد روى كاتب السيرة اخبار فرسان آخرين يفعلون ما فعله عنتر ، وتحدث عن عروة الصعاليك الذي كان يجمع الضعفاء والارامل والايتام ويقوم على حمايتهم واعالتهم (٤٠) وقد شهدنا في قصص الفروسية الاوربية ان رولاند كان يوزع الغنائم من خيول اصيلة وحرير وسلاح على ابناء قومه.(٤١)

لقد صحبت حكايات الفروسية ـ كما ذكرنا ـ حكايات حب واشعار غزل ظهرت فيها المراة وكانها الهدف الاسمى الذي يسعى الرجل في سبيل نواله ، وبدا الحب في ذلك الشعر وهو عاطفة نبيلة وتبعث على النبل . واوضح ما يكون ذلك في شعر التروبادور البروفنسيين . وقد رأينا سيجفريد الذي قتل الغول واستحم بدمه يقطع الغابات والجبال متجشما الاهوال ومشاركا في اخطر المبارزات لكي ينال الحبيبة الحسناء . ورأينا التروبادور الذي يمتزج في خياله نداء الحب بنداء الحرب ، فيحمل الصليب قاطعا البحار ومتجها الى الشرق ليحظى برؤية الطرابلسية الحسناء من جهة وليؤدي واجبه الفروسي من جهة اخرى . وقد غنى جوفري رودال واصحابه التروبادور الآخرون الحب الطاهر العفيف وتحدثوا عن مفعول هذا الحب في رفع الانسان وتجميله بالخلق النبيل وفي بعث الاغاني الحلوة . يقول اندريه الكاهن وهو يتحدث عن الحب العفيف في كتابه (فن الحب) :« انه الحب الذي يجب ان يصبو اليه الجميع بكل قلوبهم لانه حُب يزيد على الايام بلا نهاية ، ولا يندم اهلوه ، هذا الحب متميز بكونه فضيلة وداعية الى اكتمال الشخصية » ويستطرد قائلا : « ان هذا الحب يحول الرجل الفظ الى ظريف لين العريكة ، ويزود الرجل الوضيع المنشا بالخلق النبيل ، ويجمل المتكبر بالتواضع، وان المحب القادر على البذل مستعد لاسداء المعروف لاي كان من الناس ، ومن كان صحيح الحب فلا يمكن ان يكون شرها طماعا»(٤٢) وفوق ذلك فان الحب والشعر صنوان في الرومانس الاوربي ، اذ يقول التروبادور برنارد : « لا جدوى في غناء لا ينبعث من القلب ، ولا يكون القلب ينبوع غناء ما لم يرهفه الحب الصادق » (٤٣) .

ان العشق الذي تحدث عنه راوية سيرة عنتر لشبيه بهذا الحب الذي تفصح عنه الحكايات والاشعار الواردة في الادب الاوربي خلال العصر الوسيط ، فعنتر الفارس الذي يقهر الجيوش ويصارع الاسود ، هذا الفارس يبكي من الحب ، انه مثال المحب الرقيق الفؤاد الوفي الذي لا يعرف الغدر والسلوان سبيلا الى قلبه ،انه العاشق الذي دفعه الحب الى ان يعمل المستحيل ليرقى الى المستوى الذي يليق بحبه ، وهذه نماذج مما جاء في هذا الصدد ، وهي شبيهة نصا وروحا بما قدمناه من ادب الغرب. تقول سيرة عنتر : « عبلة كانت سببا لفصاحته ومقاومته الابطال وشجاعته وتجرئة لسانه ، لانه كلما ذكرها فاض بالشعر لسانه وطلبت نفسه المنزلة العالية وقوى جنانه .. » ويقول راوي السيرة في مكان آخر: « حين خلا عنتر بنفسه بكى وانتحب وفاض دمعه وانسكب واشتعل قلبه والتهب ، فعند ذلك نطق لسانه بالادب كما جرت عادة العرب » (٤٤) . ان هذا التشابه بين مفاهيم الرومانس الاوربي وبين ما ورد في سيرة عنتر جعل المستشرقين والمتخصصين في هذه الدراسات يعتقدون باحتمال تاثر احد الجانبين بالآخر ، ومعظمهم يرجح تاثر الجانب الاوربي بالجانب العربي ، فيقول بعضهم ان فروسية العصر الوسيط ماخوذة حتما من العرب (٤٥) ويقول اخرون : كان العرب عظماء في الفروسية مشهورين في العالم بذلك، ويعدد الكلمات العربية الداخلة في اللغة الاسبانية والدالة على الفروسية ، ويخصص ما ورد في حكايات الرومانس من كلمات عربية ، فالسيد موضوع الحكاية الاسبانية هي كلمة (السيد) العربية ، ومؤلف هذه الحكاية يفتتح بعض الابيات باداة النداء العربية (يا) ويستعمل كلمة (حتى) العربية وكلمة (البشرى) وغيرها ، كما ان المزراس، وهو السلاح الذي يستعمله سيجفريد هو (المزراق) العربي . ويؤكد المستشرقون بان سكان اوربا قد استعاروا من العرب مع قوانين الفروسية احترام المراة ، وان ادب التروبادور بما فيه من غناء باسم المراة ومن تمجيد للحب العفيف يكاد ان يكون مترجما من العربية ، حتى ان كلمة تروبادور نفسها مشتقة من كلمة (طرب) العربية على راي بعض المستشرقين (٤٧) .

اما الاسباب التي يضعها هؤلاء المستشرقون للدفاع عن وجهة نظرهم هذه ولدحض ما يراه المناقضون فاهمها ما يلي :

اولا : الانسجام بين المثل والمفاهيم والافكار الواردة في سيرة عنتر وبين مفاهيم ومثل الفروسية في التراث العربي من جهة ، وفقدان مثل هذا الانسجام بين مفاهيم ادب العصر الوسيط وبين عامة التراث الاوربي من جهة اخرى .

ثانيا : ظهور تلك المفاهيم في الادب الاوربي في فترة العصر الوسيط وهي فترة تفوق الحضارة العربية مع توفر الاحتكاك بين العرب واوربا .

يرى المستشرقون ان الروح التي تسيطر على سيرة عنتر هي روح الفروسية البدوية ، فهي تعكس الميزات الدائمة الاصيلة لحياة العربي في بداوته ، وان ما ورد في السيرة بهذا الخصوص ليطابق ما ورد في الشعر الجاهلي عامة وفي شعر عنتر خاصة من تاكيد على الشجاعة والمروءة والوفاء واحترام المراة والتغني باسمها (٤٨) كما ان شخصية عنتر السيرة مطابقة لشخصية عنتر الفارس الشاعر الجاهلي الذي تحدث عنه عدد كبير من كتاب التراث كما بينا في مقدمة هذا البحث . وان هناك عددا كبيرا من الشخصيات والاحداث الواردة في السيرة مؤيدة في كتب التراث (٤٩) .

حين نعود الى اوربا نجد ان المتحدثين عن فروسية العصر الوسيط يذكرون ان اصلها غامض مبهم ، وان الافكار والمفاهيم والمثل التي تتضمنها حكايات الفروسية لا تنطبق باي حال على ما ورد في التراث الاوربي وانما تناقضه تماما ، فهي نظريا تتحدث عن فرسان يحاربون من اجل تحرير الارض واغاثة الضعفاء والمظلومين، اما الواقع التاريخي فيذكر بان الارض ومن عليها كانت تباع وتشترى من قبل رؤساء الاقطاع . ويذكر المختصون ان المرء كلما امعن في

دراسة التاريخ راى ان الفروسية تجديد يكـــاد ان يكـون برمتـه شعريا ، فالباحث لا يصل قط عن طرق الوثائق الاصيلة الـى تحديد البلد الذي كانت تسود فيه هذه الفكرة ، انها تبدو وكانهـا صورة مرسلـة من بعيد وهي تناقض التاريخ ، فبينما يتحدث المؤرخـونعن رذائل البلاط واستعباد الشعوب ، نجـد الشعراء بعد فترة من الزمن يبعثون تلـك الفترة بعينهـا متاثلة بالفضائل والولاء . وليس بالامكان ان تجد في التاريخ الاوربي فارسـا شاعرا عاشقـا اسمه رولانـد او سيجفريـد او السيـد ممن تنطبق عليهم اوصاف الفروسيـة وشروطها وشمائلهـــا .(٥٠)

اما بالنسبة لما ورد في اشعار الغزل البروفنسي ، فقـد اتفـق المختصون في هـذا الحقل على ان الموقف من المراة ومن الحب معا كان غريبا كل الغرابة عمـا ورد في التراث الاوربي : اغريقيـا كان ام رومانيا ام مسيحيـا .(٥١)

ان غرابة مفاهيم الفروسية والحب الواردة في رومانس العصر الوسيط عن التراث الاوربي جعل المستشرقيـن يفتشون عن مصدر لها في آداب الامم الاخرى المعاصرة ويعينون المصدر العربي بالذات حيث كانت الحضارة العربيـة قد بلغت اوجهـا في جميع المجالات ،وكانت طرق الاتصال والاحتكاك متوفرة بيـن العالمين العربي والاوربي وذلـك خلال ثمانيـة قرون من الوجود العربي على القارة الاوربية . لقد عبر طارق بن زيـاد المضيق المعروف باسمه سنة احدى عشرة وسبعمائـة للميلاد ، واستمر العرب على الاراضي الاوربيـة حتى سقوط غرناطة سنـة ١٤٨٤ . وكان العرب من جهـة اخرى يحتلون معظم جزر البحر المتوسط والشواطيء الايطالية ، وبقيـت ممتلكاتهم هنـاك مـدة تزيـد على ثلاثة قرون (٥٢) .

لقد ذكر المتخصصون الاوربيون ان اكسفورد ، بادو ،وباريس كانت ترسل مترجميهـا ونساخها الى المناطق العربية ليقوموا بنقـل الكتب والاعمال العربيـة الى اللغـة اللاتينية (٥٣) ، وقـد اعترف الاوربيون انفسهم بالسرعـة المعجزة التيكـان يتم بهـا انتشار اللغـة العربية في اوربا ، الامر الذي دعا الاساقفة الـى ترجمـة الكتـاب المقدس الى اللغة العربية (٥٤) كما اضطر اسقف قرطبة الى اطـلاق شكـواه التـي اعلـن فيهـا بان الشباب الاوربـي بدا يفقد لسانـه اللاتيني اذ انـه شغف بالفصاحة العربية وبالترنم بقصائد القافيـة الموحدة ، ومن الطريف ان نذكـر هنا ، ان اغنية رولاند التي ترنمت بالفروسية لاول مرة في اوربا كانت قد نظمت من قبل احـــــد التروبادور على شكـل مقاطع ذات قافيـة موحدة على الطريقة العربية. وقـد تلتهـا حكايـات فروسيـة شعريـة ونثريـة ظهرت في انحاء اخرى مصحوبة باغاني التروبادور الجاريـة فيهـا كثير من المفاهيـم والالفاظ والاوزان العربية (٥٥) .

والخلاصة ، ان العصر الوسيط ، عصر الرومانس ، زمن ازدهار الفروسية الاوربية ، هـو الفترة التي تفوقت فيها الحضارة العربية سياسيا وفكريا ، وهـو عصر احتكاك واتصال بين العرب واوربـا ، اعطت فيه الحضارة العربية اوربا عطاء جزيـلا في جميع المجـالات العلميـة والادبيـة والفنية (٥٦) واما في مجال ادب الفروسية فان ذلك الادب يعكس صورة لواقع حيـاة البدوي ، وهـو جزء لا يتجـزا من تراثنـا القومي ، في حيـن ان الفروسية الاوربية تجديد لا يعكس واقعـا ، ولا يمثل امتدادا لتراث اصيل . لذلك كله رجح المستشرقون تاثير الفروسيـة العربية على مفاهيم الفروسية الاوربية ، واعترفوا باصالة الفارس العربي ، وبان عنترة بن شداد العبسي يكـون النموذج لفرسـان اوربـــا .

بغـداد

الهوامش :

١ ـ
B . Heller « Sirat Anter » , Encyclopedia of Islam , Vol . I , 518 - 521 , and R , Blachere « Antara », Ibid , 521 - 522 .

٢ ـ انظر : الاغاني ٧ : ٢٩٩ ـ ٣٠٧ ، الشعر والشعراء ١ : ١٧١ ـ ١٧٣ .
البيان والتبيين ١ : ٢٠٣٤ : ٢٠٢٤٢ : ٣٠١٢٠، الكامل : ١ : ٢٤٠ ، العقد الفريد ١ : ١٠٩ ، ١٢١ ، ١٣٧ ، وخزانة الادب ١ : ٦٢

٣ ـ الاغاني ٧ : ٣٠٧
٤ ـ نفس المصدر ٧ : ٣٠٥ ـ ٣٠٦ ، ٣٠٢
٥ ـ العقـد الفريـد ١ : ١٢١
٦ ـ الكامل ١ : ٢٤٠
٧ ـ الاغاني ٧ : ٣٠١ ، خزانة الادب ١ : ٦٢ .
٨ ـ العقد الفريد ١ : ١٠٩ ، ٥ : ١٥٣
٩ ـ الشعر والشعراء ١ : ١٧٢ ـ ١٧٣
١٠ ـ الاغانـي ٧ : ٣٠٤
١١ ـ ديوان عنترة ، تحقيق محمد سعيد المولوي ١٥١ ، الشواهد الشعرية كلهـا من نفس المصدر وسوف لا نذكر الصفحات تحاشيـا للتكـرار .
١٢ ـ سيرة عنتر بن شداد . الاصمعي ، المكتبـة التجاريـة بمصر ١٣٦٦ .
١٣ ـ انظر :
Heller , loc , cit .
Ibid . , 518 - 519 .

١٤ ـ
Ibid . 519 . , and R . Nicholson « A Literary History of the Arabs , 114 .

١٥ ـ انظر سيرة عنتر بن شداد ٧
١٦ ـ انظر سيرة عنتر بن شداد ٧٠

١٧ ـ
Bibliotheque Univereselle des Romans (J A , 1834, XIII , 256) , quoted by Heller , op . cit . 518 .

١٨ ـ
Dunlop - Liebrcht ,Gesthichte der Prosodichtungen, XIII - XVI quoted by Heller , loc . cit .

١٩ ـ
B. Heller , 518 - 521 : Brockelmann , Geschiechte der Arabischen Litteratur , SI , 45 , R . Nicholson op . cit . 459 , T . Hamilton , Anter , A Beduin Romance , and H . Thorbeck , Antara .
وانظر البيليوغرافيا في نهاية المقالة المشار اليها اعلاه(هامش رقم ١)

٢٠ ـ
W . D . Elcock , The Romance Languages 18 , 213 , and C . Gillie , Longman Companion to English Literature , 752 .

٢١ ـ
C . Jones , ed . , Medieval Literature in Translation , 520 , and P . Harvey , The Oxford Companion to English Literature , 151 , 672 , and the Encyclopedia Britanica , Vol . 19 : 389

٢٢ ـ انظر :
C . Jones , op . cit . , 520 - 541 .
وانظر هامش ٢١ اعلاه

٢٣ ـ
Ibid . , 555 - 556 . Harvey , op . cit , 162

٢٤ ـ
P . Harvey , op . cit. 552 , 720. وتنظر
The Encyclopedia Britanica , Vol . 20 , 619 .

٢٥ ـ C . Jones . op . cit . 568 .

٢٦ ـ
H . J . Chaytor , The Troubadours ,44 - 45 .

٢٧ ـ
A . Foulet , « William IX2 , The Encyclopedia Americanan , Vol . 28 , 784 .

٢٨ ـ
B . Heller , loc . cit . and Nicholson , op cit . 88 . and W . B . Chali , La Tradition Chevaleresque des Arabes
مترجم للعربية : تقاليد الفروسية عند العرب ٧٠

٢٩ ـ B . Heller , loc . cit .

٣٠ ـ Ibid . 518 - 521 .
Ibid . 519 - 520 .

٣١ ـ وانظر سيرة عنترة ٥٨ ، وحلية الفرسان ٢٤ ـ ١٧٦

٣٢ ـ انظر اعلاه هوامش ٢٢ و ٢٣ و ٢٤
Elcock , op . cit . 245.

٣٣ ـ B . Heller , loc . cit .
Ibid . 520 .

٣٤ ـ انظر سيرة عنترة ٨٧ ـ ٨٨

٣٥ ـ انظر اعلاه هامش (٢٢)

٣٦ ـ انظر هوامش ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ اعلاه

٣٧ ـ انظر سيرة عنترة ٢٦ ـ ٢٩ ، ٣٦ ، ٦٨ ، ١٠٥
B . Heller , loc . cit .

٣٨ ـ انظر سيرة عنترة ٨١ ، ١٧٥
Ibid . 519 - 520

٣٩ ـ نفس المصدر ١٢٧
Ibid . 520

٤٠ ـ نفس المصدر ١٢٦
B . Heller , loc . cit .

٤١ ـ انظر هامش ٢٢ اعلاه

٤٢ ـ
Andrea Capellanus , The Art of Courtly Love , 122 , 13 .

٤٣ ـ
S . Nichols , ed The Songs of Bernard de Ventadorn , 81 . .

٤٤ ـ سيرة عنترة ٢٣ ـ ٢٤ ، ٣٧ ، ٧٠ ، ٩٦
B . Heller , loc . cit .

٤٥ ـ
Nicholson , op . cit , 88 .

٤٦ ـ
Elcock , op . cit . 279 , 288 - 291 .

٤٧ ـ
Nicholson , op . cit . 87 - 88 . A . R . Nykl , Poetry and its Relations with the Old Provencal Troubadours 375 ; G . Crunebaum , « Avicenna's Risala , XI (1952) , 233 - 238 , and A . Denomy, «Concerning the Accessibility of Arabic Influence to the Earliest Provencal Troubadours » , Medieval Studies , XV (1953) , 147 - 158 .
Hispano - Arabic Literature
وانظر فون غرينباوم : دراسات في الادب العربي ، ترجمة احسان عباس ٢١٤ ـ ٢١٦ .

٤٨ ـ B . Heller , loc . cit .

٤٩ ـ B . Heller , loc . cit .
وانظر مقدمة البحث اعلاه

٥٠ ـ
The Encyclopedia Britanica , Vol . 13 , 430 - 433
وانظر : تقاليد الفروسية عند العرب (٦)
وانظر اعلاه الهوامش : ٢٢ و٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

٥١ ـ ٥٢ ـ
C . S . Lewis , The Allegory of Love , 3 , M . Valency , In Praise of Love , I . Denis de Rougemont , Passion and Sociaty , Trans . M . Belgion , 76 , and I . Singer , The Nature of Love , 51 - 52 .

٥٣ ـ
M . Hume , Spanish Influence on English Literature , 13 - 14 .

٥٤ ـ
M. Hume , The Spanish People : Their Origin Growth and Influence , 105 .

٥٥ ـ
H . Farmer , Historical Facts for the Arabian Musical influence , 8 .

٥٦ ـ
W . R . Lethaby , « Medieval Architecture » in C . G . Crump and E F . Jacob ,ed ; The Legacy of the Middle Ages , Oxford ,1951,64